الأب أنستاس ماري الكرملي البغدادي
في الذكرى الستين لوفاته (-)

بهنام سليم حبّابه

كان ولا يزال للّغة العربية وآدابهـا عبر العصور عشّاقٌ كثيرون أفنوا العمر كله في دراساتهم وتتبعاتهم وتآليفهم، فهم فطاحلُ إتّخذوا شعارًا لهم هذا البيت من الشعر العربي القائل :

إن الذي ملأ اللغـاتِ محاسـنًا

جعلَ الجمالَ وسـرّه في الضادِ

وهذا الأب الكرملي البغدادي هو واحد من أولئك العظـام – إن لم يكن عميدًا لهم –، مـا حـدا بعارفي قدره كتابة هذين البيتين من الشـعر على ضريحه في تأبينه :

لطمتْ صدرهـا عليـك لغـاتٌ

في بوادي الأعراب يوم وفاتـك

وعروسُ الشعر قد شقّت الجيبَ

وقامـت تنـوح فـوق رفاتـك

وكان، رحمه الله، قد وافاه الأجل صباح يوم 1947/1/7 في المستشفى الملكي ببغداد. ونُقلَ جثمانه المبارك إلى دير الآباء الكرمليين – القديم – الكائن اليوم في شارع الجمهورية، حيث كنيسة القـديس يوسـف القـديمة للاتين، وهناك ووريَ الثرى.

فمن هو هذا العبقري ؟

إنه الأب أنستاس ماري الكرملي البغدادي. والده لبناني سليل أسرة عريقة تنتسب إلى قبيلة بني مراد، هاجر إلى بغداد واتخذها موطناً له، وذلك منذ منتصف القرن 19. واقترن بفتاة بغدادية هي مريم بنت اوغسطين جبران، من أقدم العائلات المسيحية في العراق. وأنجبت له فيمن أنجبت فتىً في 1866/8/5 ظهرت عليه منذ الصغر علاماتُ الذكاء الخارق.

دراسته

تلقّى دروسه الإبتدائية في مدرسة القديس يوسف العريقة في بغداد، ثم في مدرسة الإتفاق وكان مديرها خاله الأستاذ فرنسيس جبران. واختيرَ بعدئذٍ، وهو ابن 16 سنة، لتدريس اللغة العربية في مدرسته نفسها.

وفي العشرين من عمره قصد بيروت لتدريس اللغة العربية والتفرغ لدرس اللغتين اليونانية واللاتينية، وآداب اللغتين العربية والفرنسية.

الأب الكرملي

ورحل الشاب البغدادي إلى بلجيكا حيث انتمى إلى أحد ديورة الرهبان الكرمليين، طالبًا التزهد ومواصلاً الدراسة. وانتقل بعدئذٍ إلى مدينة مونبلييه الفرنسية لدراسة الفلسفة واللاهوت. وبعد النذور الرهبانية رُسِمَ كاهنًا سنة 1894، وبعد فترة قصيرة غادر فرنسا هذا الراهب الكاهن الجديد " الأب أنستاس ماري الكرملي " إلى بغداد، بعد أن زار ديار الأندلس.

وفي بغداد أُسندت إليه إدارة مدرسة القديس يوسف للآباء الكرمليين مع القيام بتدريس اللغة العربية والفرنسية، إضافة إلى القيام بواجبات الوعظ وسائر الخدمات

الدينية الواجبة عليه. ومع تلك المهمات، شرع يكتب المقالات والبحوث اللغوية والتاريخية واستمر على ذلك إلى نهاية عمره.

البحوث والمؤلفات

أخذ الأب أنستاس ينشر في معظم المجلات المعروفة يومذاك كالمشرق والمقتطف والمباحث والهلال، وفي الجرائد كالعالم العربي والزمان والبلاد والبشير وسواها.

وبالرغم من أشغاله ومَهَمّاته العديدة، عكف الكاهن الشاب على دراسة لغات عديدة : اللاتينية واليونانية والإنكليزية والإيطالية والتركية، مع الإلمام الواسع بالفارسية والحبشية والسريانية بلهجتيها والمندائية، فضلاً عن العربية والفرنسية وآدابهما. وقد توغّل في دراسة بعض تلك اللغات وعلاقتها بالعربية فجاءت أبحاثه العديدة في هذا المجال شيقة فريدة. وقد أحصاها تلميذه الأستاذ گورگيس عواد فوجد أنها (1331) بحثًا ومقالة في مختلف الصحف والمجلات العربية فضلاً عن الأجنبية.

هذا إضافة إلى ما نُشر بعد وفاته من مقالات بلغ مجموعها (1339) مقالة مسجلة كلها بمفرداتها وتواريخ ومواضيع نشرها. وجاءت أبحاثه في مختلف المجالات عديدة وافية بالمرام. وقد نُشر العديد منها بأسماء مستعارة. وظل، رحمه الله، سيفًا مسلطًا على رأس كل من يناوئ العربية أو يحط من قدرها. وكان في ردوده على من يتوهم أو يخطئ من الباحثين لا يعرف ليناً ولا هوادة، إذ كانت اللغة العربية حبه الأكبر، أوقف حياته على خدمتها والذود عنها. كذلك في دفاعه عن الحرف العربي في وجه الداعين إلى إبداله بالحرف اللاتيني كان مدافعًا قويًا، فهو أشد المعارضين لتلك الدعوة من أجل سلامة لغة الضاد.

هذا كله كان في عهد الإستعمار، والسياسة العثمانية سياسة تتريك. فكان يؤلمه المصير المؤسف الذي آلت إليه لغة العرب في عقر دارها. فأصدر مجلة " لغة العرب " تلك المجلة المرموقة التي صدر عددها الأول سنة 1911 وثابر على اصدارها بانتظام واهتمام، فإذا هو في مجلته الزاهرة تلك رائدًا من رواد اللغة والتراث العربي. وبديهي ان جبارًا عنيدًا كالأب الكرملي أغضبَ الأتراك الإتحاديين، فاعتقلوه ونفوه إلى مدينة (قيصري) في الأناضول. وظل في المنفى نحو سنتين ثم أُخلي سبيله بمساعي الأمير فيصل بن الحسين. فعاد إلى بغداد، وعاود إصدار مجلته سنة 1926 مدة ست سنوات أخرى، ثم أغلقها (لتضاؤل المعنيين في الديار العربية وقلّة المعاضدين من أبناء الضاد) كما ذكر في العدد الأخير.

وقد وضع هذا الجهبذ كتبًا قيمة ورسائل ثمينة، كما وقف على طبع عددٍ من الأسفار المفيدة في اللغة والأدب والتاريخ. فمن مؤلفاته المطبوعة : نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها، الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، أغلاط اللغويين الأقدمين، مختصر تاريخ العراق، خلاصة تاريخ بغداد، جمهرة اللغات، أمثال العوام، خواطر علمية، أديان العرب، تذكرة الشعراء، بلوغ المرام في شرح مسك الختام.

وله كتبٌ غير مطبوعة، منها : شعراء بغداد وكتّابها، الغرائب، الرغائب، العرب قبل الإسلام، خواطر علمية، معجم عربي – فرنسي مطوّل.

على ان أعظم دراساته وأكثرها أهمية في جدول مؤلفاته كتابه (المساعد)، وهو معجم صَرَفَ السنينَ الطوال في جمع مواده وتأليفه، وتوفي قبل أن يخرجه للناس مطبوعًا. وقد قام بتحقيقه فيما بعد الأستاذان گورگيس عواد وعبدالحميد العلوجي، فظهر الجزء الأول منه مطبوعًا سنة 1972 وكذلك الجزء الثاني سنة 1976، ولا أعلم ما هو مصير الأجزاء الباقية، وكانت جاهزة على مكتب الأستاذ گورگيس ومهيأة للطبع.

هذا ولا يُنسى فضل الكرملي في تحرير النصوص المطوية القديمة مثل الجزء الثامن من كتاب (الإكليل) للهمداني، و(نخب الذخائر في أحوال الجواهر) لإبن الاكفاني، وكتاب (العين) للخليل ابن أحمد الفراهيدي الذي طبع منه (148) صحيفة.

مكتبة الكرملي

كانت مكتبة الكرملي من أعظم المكتبات الخاصة في بغداد وأوسعها نطاقًا. فقد حَوَت أمهات المصادر العربية القديمة في اللغة والأدب والتأريخ والبلدان والتراجم، وغير ذلك من مواضيع التراث العربي، نحوًا من عشرين ألف مجلد، وكانت تملأ خمس غرف في الطابق العلوي من الدير.

وقد بدأ بجمع هذه المكتبة منذ صباه، ولكن نكبة مؤسفة أحاقت بها سنة 1917 إذ نُهبت ويُعثرت، واستطاع أن يستعيد بعض ما نُهب منها. وقد ذكر الأب لأحد أصدقائه أن الجنود العثمانيين، وكانوا قد احتلوا الدير فترةً من الزمن أثناء الحرب العظمى الأولى، كانوا إذا اشتد بهم البرد يأتون ببعض كتب الخزانة ويوقدونها ليصطلوا بنارها !!

واستطاع أن يكوّن مكتبته ويغنيها من جديد حتى باتت في أواخر حياته من أهم المكتبات في بغداد. وبعد وفاته قام الدير بإهداء تلك المكتبة إلى المتحف العراقي، وارتأت مديرية الآثار العامة يومذاك الاحتفاظ بالمخطوطات وبعض المطبوعات في مكتبة المتحف. وأرسلت نحو (5600) مجلد مطبوع إلى مُتحف الموصل المؤسس حديثًا آنذاك. فكانت النواة الأولى لمكتبة متحف الموصل الحالية.

ومجموع ما أهداه الدير نحو (1335) مخطوطة وستة آلاف كتاب مطبوع. أما الكتب الدينية، ومعظمها بلغات أجنبية وبعض المطبوعات العربية القديمة مع مؤلفات الأب أنستاس الخطية، فقد احتفظوا بها في الدير.

الكرملي ومجلسه الأسبوعي

كان للأب أنستاس مجلسٌ يعقد كل جمعة فيلتقاطر الأدباء والمؤرخون والباحثون إلى دير الآباء الكرمليين لزيارة الراهب العلاّمة البغدادي، والاستماع إلى ما يدور في ذلك المجلس من أحاديث ومساجلاتٍ أدبية في اللغة والنثر والشعر والنوادر والطرائف، والمجلس يحفل بعشراتٍ الزوار من الأصدقاء والأعلام والمؤرخين والمعجبين. وكان الاجتماع يدوم إلى الظهر حيث يُقرع ناقوس الدير لطعام الغداء فينفرط عقد الزوار.

ومن روّاد مجلس الأب الكرملي أذكر للتاريخ الأعلام : أحمد حامد الصراف، جلال الحنفي، الوزير د. حنا خياط، عبدالرزاق الحسني، د. داود الجلبي، إبراهيم عاكف الآلوسي، طه الراوي، الوزير يوسف رزق الله غنيمة، د. مصطفى جواد، روفائيل بابو إسحق، الملا عبود الكرخي، گورگيس عواد، محمد رضا الشبيبي، يوسف يعقوب مسكوني، د. هاشم الوتري، ميخائيل عواد، د. محمود الجليلي، إبراهيم الواعظ، يعقوب سركيس، مير بصري، أنور شاؤول.

وكان محظورًا على الجميع الخوض في مواضيع الدين والسياسة.

وكان الكرملي قطب الجلسة، وعند احتدام النقاش يهرع إلى مكتبته ليأتي بكتاب أو أكثر لإغناء البحث المطروح للنقاش. وقد أصبح الأب الكرملي في أعوامه الأخيرة أسطورة حيّة، يكتظ مجلسه بالزوار من شيوخ وكهول وشبان من علماء ومتعلمين وأدباء ومتأدبين، وينظر إليه الجيل الناشئ كما يُنظر إلى أحد الحكماء الأقدمين.

زاره يومًا المستشرق الفرنسي المعروف لويس ماسينيون وخرج من عنده قانعًا مهتديًا، وكان لهذه الذكرى نصبٌ تاريخي في الدير القديم نقلوه فيما بعد إلى الدير الكائن في كرادة مريم.

منزلته العلمية

كان الأب أنستاس عضوًا في عدة مجامع علمية شرقية وغربية :

1- انتُخب عضوًا مراسلاً في المجمع العلمي العربي في دمشق منذ تأسيسه سنة 1920.

2- انتُخب عضوًا مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة منذ نشأته في 1933، وكان يحضر جلسات هذا المجمع، ويبحث ويناقش في كثير من المواضيع اللغوية.

3- اختاره مجمع المشرقيات الالماني عضوًا سنة 1911.

4- اختاره المجمع العلمي في جنيف عضوًا فيه.

5- أُختير بين منظّمي المعرض الفاتيكاني في روما سنة 1924.

6- انتُخب عضوًا في لجنة التأليف والنشر العراقية التي ألفتها وزارة المعارف (التربية) في بغداد سنة 1945.

ونال أوسمة من الحكومتين الإنكليزية والفرنسية، وأهدى إليه الملك غازي ساعة ذهبية. كما مُنح وسام السبق العلمي سنة 1920 ووسام الإستحقاق.

وقد قال فيه الأستاذ عبدالرزاق الهلالي : " كان الكرملي وجه العراق في المجامع العلمية، إذ سعت إلى ضمّه إليها عضوًا عاملاً ".

تكريم الأب الكرملي

كان من حق عالم جليل كالأب الكرملي أن يحتفي به تلاميذه وأصدقاؤه ومريدوه في فرصة يوبيل ذهبي له أي مرور نصف قرن على بدء اشتغاله باللغة

العربية وآدابها. فكانت حفلة ويوبيلاً ذهبيًا اشترك فيه جمهرة من الباحثين والأدباء والشعراء، معبّرين عن تقديرهم لما قال وكتب. وقد تشكلت لجنة لتكريمه قوامها السادة الأساتذة : يوسف غنيمة، طه الراوي، سليم حسون، معروف جباووك، أحمد حامد الصرّاف، يعقوب سركيس، طاهر القيسي المحامي، وانتخبوا بالإجماع الأستاذ الشاعر جميل صدقي الزهاوي رئيسًا للجنة وأحمد حامد الصراف سكرتيرًا لها.

وقد وجّه رئيس لجنة اليوبيل الدعوة إلى العلماء من شرقيين ومستشرقين، ومما جاء في تلك الدعوة :

" لما كان العلاّمة الأب أنستاس ماري الكرملي من الذين أنجبهم العراق نابغة في العلوم العربية، وقد خدم اللغة بصدق خمسين عامًا، فقد رأى فقهاء العراق أن الواجب يدعوهم إلى تكريمه اعترافًا بفضله الجم ".

وأُقيم هذا التكريم في دار رئيس الوزارة العراقية يومذاك السيد عبدالمحسن السعدون وبإشراف وزير المعارف السيد توفيق السويدي ؛ وكان ذلك في 1928/10/7. وتواردت الرسائل والبرقيات من كل حدب وصوب، وألقى كتّاب وشعراء خطبًا وقصائد كثيرة. وكان من المتكلمين ومرسلي التقاريظ أحمد حامد الصراف، توفيق السويدي، جميل صدقي الزهاوي، حبيب زيات، روفائيل بطي، مصطفى جواد، يعقوب سركيس، يوسف غنيمة، عبدالرزاق الحسني، عيسى اسكندر المعلوف، لويس ماسينيون، اغناطيوس جويدي، أحمد زكي أبو شادي. وأصدرت المجلات والجرائد العراقية وغير العراقية لهذا اليوبيل.

ومما جاء في قصيدة الزهاوي :

وإن أنستاسًا هو السند الذي ... همى علمُه للظامئين كَصَيّبِ

تزّهبَ يرعى العلمَ خمسينَ حجة ... فأكبرْ به من عالمٍ متزهّبِ

وقال الشاعر مهدي مقلّد :

اللهُ يشـهدُ كنـتَ للفصحـى أبًـا	عنهـا تدافـعُ باللسـانِ وباليـدِ
مترهبًـا لابـن البتـول وياحثًـا	عنهـا بثـوبِ الناسـكِ المتعبّـدِ
فجمعتَ بين حُبِ الناصري وبينهـا	مثـل اجتمـاع الفرقدين بمشـهدِ
فالقلبُ من دينـ ابن مريـم وحبّه	والفكـرُ من لغـةِ النبـي محمدِ

أما الأستاذ أحمد حامد الصراف، فقال مُشيدًا بالروح الأخوية التي توحّد بين أبناء الوطن من مسلمين ومسيحيين، جاعلاً من تكريم الأب الكرملي البرهان الساطع على ذلك، منشدًا :

وعشـنا وعاشتْ في الدهور بلادُنا	جوامعُنـا في جنبهـن الكنـائسُ
وسوفَ يعيشُ الشعبُ في وحدةٍ له	عمائمنـا في جنبهـن القـلانسُ

الكرملي واكتشاف أمريكا : !!

من طريف ما قرأتُ عن الأب أنستاس تحمُّسه للرأي القائل إن العرب هم الذين اكتشفوا أمريكا ! : فقد جاء في مجلة (العربي) الكويتية (العدد 169/ك1/1972 ص164 وما بعدها) " إن الأستاذ أنستاس الكرملي من المتحمسين أشد التحمّس لقصة كشف العرب لأمريكا. ففي ديسمبر 1944، ألقى محاضرة قيّمة في قاعة فيصل الثاني ببغداد ونُشرت هذه المحاضرة في مجلة المقتطف المصرية. فمن مطالعة مقال مجلة (العربي) ومن بعض ما جاء في تلك المحاضرة يتبين طول باع الكرملي في بحوثه اللغوية والتاريخية.

وأخيرًا أسجل كلمة الإهداء الجميلة التي وردت في مقدمة كتاب " الكرملي الخالد " قال الكاتب " أهديه إلى أولئك الذين حفّوا حول مائدة الأب الكرملي في أيام الجمعة ليرتشفوا من علمه اللامتناهي، ويستمعوا إلى كفاحٍ شاقٍ دام ستين سنة في الدرس والمطالعة والبحث والتنقيب والتأليف ".

المصادر :

- الكرملي الخالد لجورج جبوري - بغداد 1947.
- الأب الكرملي، حياته ومؤلفاته لكوركيس عواد - بغداد 1966.
- الكرمل - الأب أنيير أبونا - بغداد 1978.
- موسوعة أعلام العراق - حميد المطبعي 1995.
- جريدة (الحدباء) الموصلية - العدد (762) في 1997/1/28.